الخطاب الأدبي من منظور لساني تداولي
نماذج تحليلية من قصيدة الياقوتة لسيدي الشيخ

أ.د: صالح الدين زرال
جامعة فرحات عباس – سطيف –

ملخّص:

لقد سعت اللسانيات في بداية ظهورها إلى البحث عن الأدوات الإجرائية المساعدة في تحليل اللغة وفق رؤية علمية؛ أي أن هذه الغاية هي التي وجهت البحث بمكان أن يتحصل المتكلم أوالمستمع على حد اللساني في بداياته، لكن سرعان ما أحس علماء اللغة بأن مرام اللسانيات لا ينحصر في الكفاية اللسانية التي يمتلكها المتكلم؛ فتلك أداة يحقق بها أهم هدف هوالتواصل وبناء على ذلك فإنه من الواجب سواء على قدر كاف من معرفة الظروف والمؤثرات المحيطة بالموقف الكلامي، وعليه ظهرت مقاربة لسانية جديدة بأدواتها وآلياتها تعالج المواقف الاتصالية المختلفة التي يتحسن من خلالها اللسان البشري، وهذا ما يحاول المقال الكشف عنه، وذلك من خلال مناقشة مضامين هذا التوجه، إضافة إلى محاولة بسيطة لتحليل نماذج من قصيدة الياقوتة التي بين يدي القارئ

Résumé:

Après la ferveur pour la syntaxe des années 1930 -1960 et la passion pour la sémantique des années suivantes, la théorie contemporaine cherche dans ce qu'on appelle la (pragmatique) l'inspiration nouvelle pour comprendre la nature et le fonctionnement du langage. Et ceci nous conduit à traiter les principes et les méthodes de cette nouvelle approche, pour savoir que le contexte est une piéce maitraise dans l'analyse pragmatique du discours.

أوّلاً: مدخل:

إنّ الحديث عن مفهوم السّياق وظهور النّظرية السّياقية ورؤيتها للعلاقة الوطيدة بين البنية والاستعمال، يحيلنا على أن نحذّر في تعاملنا مع ذلك كلّه من الخلط بين مفهوم البنية والاستعمال، يقول الباحث " عبد الرّحمن الحاج صالح " موجّهاً أنظارنا لهذه القضيّة: " **إنّما يفسّر اختيار لفظٍ معيّنٍ في تأدية غرضٍ معيّنٍ في حال**

خطابٍ معيّنةٍ وليس المعنى وحده – حتّى في هذه الصّورة – يفسّر وجود لفظين معينين. **فما هو راجع إلى اللّفظ لـــه قوانينه الخاصّة به غير قوانين استعمال اللّفظ.** فدراسة هذا **الجانب الاستعمالي** للّغة هو الذي يسمّيه الأوروبيون الآن براغماتيك **pragmatique**. وأصبح الآن الكثير من اللّسانيين الغربيين ومقلّديهم من العرب لا يعرفون إلاّ البراغماتيك بل حصروا كلّ اللّسانيات في هذا الجانب الاستعمالي مقتنعين في ذلك بأنّ بنية اللّغة تفسّرها المعاني المقصودة في الخطاب وهذا خلط فظيع بين ما هو لفظٌ لــه بنية قائمة بذاتها كما قلنا وبين اختيار هذا اللّفظ في حالٍ خطابيةٍ معيّنةٍ. والسّبب يكمن في وقوع نوعٍ من الكلل إزاء البحوث الصّورية في ذاتها والنّفور من دراستها على حدة أي بعيداً عن كيفية استعمال النّاطقين بها. وأكثر اللّغويين الغربيين المحدثين مولعون بالبراغماتيك، أي دراسة استعمال اللّغة، وقوانين استعمال اللّغة اجتماعية أصالة وللبنى اللّغوية جانب آخر غير اجتماعيٍ وهوميدان صوري، وهذا مع الأسف لم ينتبه إليه الكثير من النّاس وفيما يخصّ النّحوفي حدّ ذاته فيقولون بأنّ البنية قُتلت بحثاً في اللّسانيات الحديثة... ".[1] وهذا " يعني أنّ اللّغة نظام لربط الكلمات بعضها ببعض وفقاً لمقتضيات دلالتها العقلية لكي تتمكّن من القيام بوظيفتها الأساسية كوسيلة للاتّصال بين النّاس ".[2] وتأسيساً على هذا المفهوم العامّ فإنّنا نعتقد كما يعتقد الباحث "عبد القادر الفاسي الفهري"، أنّ "النّظر إلى اللّغة ومكوّناتها الجْوهرية يتغيّر يوماً بعد آخر، وكذلك الشّوائب الرّبضية التي تتفاعل مع الجوهر لتنتج عن ذلك صورة متعدّدة الأبعاد، أو غير متجانسةٍ أحياناً، بل مستغلقة، يختلط فيها ما ينتمي إلى عناصر اللّغة، وما هو عارض في سيرورات اللّغو"،[3] ويضيف الباحث نفسُه قائلاً: "وهذا التوجّه، توجّه تعدّد الأحداث في الفعل البسيط يتعارض والتّفكير التّقليدي، الذي يفترض أنّ الفعل يدلّ على حدثٍ واحدٍ (إضافةً إلى الزّمن)، مع أنّ هناك ما يوحي بأنّ الحدث مركّب في كثيرٍ من الحالات. فهذا المشكل الأوّل، أي كيف نفكّك الأفعال أو الأحداث، أو ما هي العناصر الأولى، أو الذرّات الحديثة... ثمّ هناك مشكل ثانٍ هو مشكل الأدوار الدّلالية والوظائف النّحوية والرّبط بينهما ".[4]

وهذه المقولة تؤكّد أنّ الإشكال الأساسي الذي يواجه اللّغة، إضافةً إلى بنيتها، هو كيفية تفسيرها فعلاً أو حدثاً، وهذا استلزم من الباحثين الانطلاق أساساً في تجلية هذا المفهوم من تحليل اللّغة فعلاً أوّلاً على المستوى الاختياري، وذلك بِعَدِّ البحث في المفردات الأصل، فمشروع الباحث "أحمد محمّد المعتوق" مثلاً، وهو(نظرية اللّغة الثّالثة)، قام أساساً على فكرة التّأسيس للمفردة قبل التّركيب، يقول في ذلك موضّحاً: " في البدء كانت الكلمة كما يقال؛ ذلك لأنّ عماد كلّ لغةٍ في الأصل هو ألفاظها وصيغها، وروحها وجوهرها الأساس في مفرداتها، وليس في تراكيبها كما يعتقد البعض ولا في قواعد نحوها التي تنظّم هذه التّراكيب ولا في قواعد البلاغة؛ ذلك لأنّ التّراكيب تتكوّن وتؤلّف في الأصل من المفردات، ولولا المفردات لما كانت هناك تراكيب. أمّا قواعد النّحو فوظيفتها الأساسية هي تنظيم العلاقات بين الكلمات أو المفردات والتّراكيب من أجل بناء جمل وعبارات فصيحة واضحة المعاني. في حين تنحصر وظيفة قواعد البلاغة في تنظيم وتنسيق العلاقات بين هذه الجمل والعبارات بما يوافقها من وجوه حسن البيان وأساليب القول ".(5)

وهذا كلّه يحيلنا على مفهوم القيمة **Valeur** عند سوسير، والتي تقول بدوارنية وحركية القطع في لعبة الشّطرنج وكذلك اللّغة، "... ذلك أنّ الحقائق في ميدان المعاني لا تتقرّر إلاّ بلمح أسرار تعبيرات الألفاظ ووجوهها، واقتناص العلائق بين المسمّيات المادّية بعضها وبعض، وبين المجرّدات بعضها وبعض، وهذا يقتضي سياحةً في اللّغة عريضةً، ويعتمد على غوصٍ فيها عميق، كما يقتضي معرفةً شاسعةَ الأبعادِ بطبائع أهلها وحياتهم، وبصراً نافذاً بالعناصر الطّبيعية والاجتماعية والمعيشية المؤثّرة في هذه الحياة، وحسّاً مرهفاً بتذوّق نفوسهم لعناصر حياتهم تلك".(6)

ولئن كان المفهوم البنيوي للتحرّك القويّ للمفردات يتمّ داخل بيت البنية اللّغوية الخالصة، فإنّ هذا المفهوم يوجّهنا نحو التحرّك القويّ للمفردات، إضافةً لما أكّدناه، خارج بيت البنية أيضاً، وعلى هذه الحال يتنزّل مفهوم المفردة، بِعَدِّها الأسَّ

في بناء السّياق، في إطار مفهوم الإقطاعية أو الطّبقية، " إنّ ألفاظ اللّغة ومفرداتها ورموزها منها، كما هو معلوم ما هو **قطاعي خاص**، مرتبط في المقام الأوّل بفئاتٍ أو طبقاتٍ اجتماعيةٍ معيّنةٍ وبمعارف وعلوم وفنون أو مجالات وحقول وظيفية خاصّة وتقنيات ذات طوابع مميّزة، وتلك هي المصطلحات، ومنها ما هو عام مشاع، يستعمله أفراد المجتمع اللّغوي بمختلف فئاتهم، وتلك هي الألفاظ أو المفردات اللّغوية العامّة. وإن كان استعمال هذه الألفاظ أو المفردات يسير على وجه التّحقيق بدرجاتٍ متباينة، ووفق مستوياتٍ معرفيةٍ ومراحلَ سنّيةٍ أو ذهنيةٍ متدرّجة. وإذاً فالحديث عن **اللّغة العربية الثّالثة** هنا يقتضينا أن نبيّن ما يفترض أن يكون عليه طابعها المفرداتي المرتبط بهذين النّوعين من العناصر اللّغوية بنحو أكثر دقّةً ووضوحاً ممّا سبق أن ذكرناه أو أشرنا إليه في الفقرات السّابقة، وهذا بدوره يلزمنا أن نوضّح موقفها أو بالأحرى موقفنا نحن من الألفاظ والتّراكيب الدّخيلة أو الوافدة...".(7) فالعربية الثّالثة هي التي تهتمّ بالمستعمل الآني، والفعلي، بغضّ النّظر عن التطوّرات التّاريخية للكلمات، ولكنّ السّؤال الذي يمكن طرحه في هذا المجال، كيلا نقع في تناقضٍ في تعاملنا مع التّراث، وهو: هل أنّ علماء العربية القدامى نظروا إلى اللّغة على هذا الشّكل أم لا وهو ما يحاول البحث كشف النّقاب عنه. وإذا كانت اللّغة كذلك، فإنّه يجب أن ننتبه إلى أنّها " تحتوي على جوانب شديدة التّعقيد تتطلّب أكثر من منهجٍ وأكثر من وسيلةٍ لفكّ شفراتها وتحليل محتوياتها، وكشف مقاصدها، ولا يتسنّى لمنهجٍ واحدٍ أن يصف خصائص اللّغة وصفاتها أو يفسّر ظواهرها تفسيراً واضحاً يصيب كبدها، ومن ثَمَّ قسّم العلماءُ اللّغةَ إلى عدّة مستوياتٍ تحليليةٍ ليتمكّنوا من كشف محتوياتها وإظهار أسرارها ومعرفة مضمونها. وقد سلكوا في ذلك مناهج متعدّدة يهدف كُلّ منهجٍ منها إلى وضع تفسيرٍ دقيقٍ لظواهر اللّغة، والمقصد من هذا إماطة اللّثام عن أبعاد اللّغة الدّلالية ومقاصدها في التّواصل الاجتماعي ".(8)

ثانياً: المفهوم ا جتماعي للمعنى

لقد ركّز كثير من الباحثين في أثناء تحليلهم للّغة على الجانب الاجتماعي لها، وأكّدوا على أهمّيته، كما أثنوا كثيراً على تأثير علم الاجتماع في ذلك بِعَدِّه الأسَّ في هذا التّفكير، ومع ذلك فإنّ تعريفاتهم تلك طبعها نوع من الغموض واكتنف القارئَ اللّ ن، ولم يستطع مثلاً أن يفرّق بين اجتماعية اللّغة عند سوسير **Saussur**، وعند فيرث **Firth**، فممّ تكوّن هذا الغموض أو ما هو مردّه ؟ وقد تعدّدت – كما أشرنا – الإحالات على المعنى الاجتماعي للّغة بصفة عامّة وللدّلالة بصفة خاصّة، فمن الباحثين من لا يحدّد المفهوم الاجتماعي بدقّة ويتركه مفتوحاً على كلّ المجالات، ومنهم من يربطه بالمعاني المحظورة **Taboo**، وهناك من يخصّص هذا المعنى بالاجتماعية الخالصة ويفصله عن باقي المعاني العاطفية أو النّفسية وغيرها.

وإنّ أوّل ما يجلب انتباهنا هو ذلك الرّأي الذي ربط بداية المفهوم الاجتماعي للّغة، وقد بدأ بالظّهور مع الفكر السّوسيري الذي يرى أنّ اللّغة اجتماعية بطبعها، وعلى ذلك أسّس معظم الباحثين آراءهم في اصطلاحية الدّليل، ذلك أنّهم لم يراعوا أساساً طبيعة الموضوع الذي تطرّق إليه سوسير **Saussure**، فقد أكّد من البداية أنّ موضوع اللّسانيات إنّما هو اللّغة، واتّضحت الرّؤية بعد ذلك بشكلٍ جليٍّ، فإذا قلنا باصطلاحية الدّليل فذلك يقودنا حتماً إلى التّأكيد بأنّه ربط اللّغة بالواقع؛ وهذا ما نَفَتْهُ البنيوية، ولذلك فإنّ المفهوم الاجتماعي للّغة يستحيل إذاً مفهوماً مرتبطاً بالبناء اللّغوي، وهو ذلك القدر المشترك من المعرفة اللّغوية بين أفراد المجتمع.

وقد عبّر ستيفن أولمان **Steven Ullman** عن ذلك ناقداً هذه الرّؤية: "كلمة السّياق قد استعملت حديثاً في عدّة معانٍ مختلفة. والمعنى الوحيد الذي يهمّ مشكلتنا في الحقيقة هو معناها التّقليدي أي ((النّظم اللّفظي للكلمة وموقعها من ذلك النّظم))، بأوسع معاني هذه العبارة، إنّ السّياق على هذا التّفسير ينبغي أن يشمل – لا الكلمات

والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب – بل والقطعة كلها والكتاب كله، كما ينبغي أن يشمل كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات. والعناصر اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن... ".[9]

ويضيف أحد الباحثين في المعنى نفسه قائلا: "... فلا نقبل من يقول إن للكلمة معنى مستقلا، فالكلمة لا محالة ترتبط بمحيطها اللغوي والثقافي، والبيئي، والزمني، والكلمات التي ستوهم بعض الباحثين أنها مستقلة الدلالة... ليست ذات دلالة مستقلة، لأنها قد تفهم عند من لا يحيط بها علما على نحو آخر أولا يفهم مدلولها الخاص الذي يتداعى في أذهان من يستخدمها... ونظير هذا كثير في الثقافات الأخرى التي لا تعلم كثيرا عن مدلول بعض الكلمات المشهورة داخل هذه الثقافات، فلا تلتفت لأهمية هذه الكلمات السيارة مثل " بعث تولستوي"، " أشباح إبسن" فقد لا يفهم القارئ شيئا من مدلولي هذين المثالين، ولكن من أحيط علما بهما يستدعيان في ذهنه المعلومات التي عرفها عنهما... ".[10] والأمثلة التي قدمها لا يمكن أن تفهم إلا في ظل هذا المفهوم كما سنرى، ويجب أن نفهم تبعا لذلك أن نص الكلام بشكل عام " يتكون من ثلاثة أشياء؛ الشيء الأول هو إنتاج النص، والشيء الثاني هو تقسيم هذا النص إلى عدد من الأنماط... والشيء الثالث: وضع تلك الجملة في سياق مناسب،وقد عرفنا أن السياق قد يكون **خارجيا**، وقد يكون **داخليا** ".[11]

لقد كان للفلسفة الوجودية أثر واضح في الدراسات المنضوية تحت لواء علم الاجتماع، وكذلك علم اللغة الاجتماعي **Socio- linguistique**، " فلا شك في أن مجموعة المفردات سوف يكون لها تعبير عن مواقف محددة وملموسة إذا وضعت في سياقها الخاص، وعلى هذا يمكن اعتبارها انعكاسا صادقا للعادات والعرف والأصول الاجتماعية، وكأن اللغة والحياة أصبحتا مظهرين لحقيقة واحدة، وبهذا أيضا يمكن أن يصبح الأسلوب انعكاسا للفضائل والرذائل، ولخواص الامتياز والضعف في أمة بعينها، ويبدو أن هناك مفارقة في نظرة المفكرين للغة **تنبع من النظرة الفلسفية للوجود** ".[12]

وانطلاقا من هذا المفتاح الوحيد الذي يتنزل فيه الإنسان وهو اللغة، يتمكن الباحث من تفسير المواضعات مضيفا: "... إن حقيقة المواضعة تكمن في أنها تحرك الكلام بما يقتضي صرف الخطاب إلى المراد رأسا، وبتقدم المواضعة زمانيا يكتسب الخطاب وحدوية البعد الدلالي. فالمتكلم لا يخاطب باللغة أحدا إلا وهو يريد ما وقعت المواضعة عليه حتى لا يكون ملغزا أو معميا، فالمواضعات دعامة الانتظام البلاغي في الكيان وبانعدامها يرتفع العقد الاجتماعي بين أفراد المجموعة اللسانية الواحدة ".[13] " ولا بد أن نشير في هذا الصدد قبل أن نختم المبحث عن أمرين: الأول متعلق بمفهوم الطبقية في المعنى الاجتماعي، والثاني متعلق بمفهوم المحظور في المعنى الاجتماعي أيضا. " أما اللغة الطبقية التي تعني أن كلام طبقة اجتماعية يختلف تماما أو تقريبا عن طبقة اجتماعية أخرى في نفس المنطقة فهذا شيء نادر الحدوث، وإن كان يحدث أحيانا وبخاصة في المناطق المختلفة. وإن سكنى أصحاب الطبقات المختلفة – عادة – في دائرة واحدة،ومنطقة سكنية واحدة، وحتمية التفاهم والاتصال بينهم هو العامل الأساسي في أن أبناء الطبقات الاجتماعية يمكنهم أن يتفاهموا بعضهم مع بعض بلهجاتهم الخاصة "،[14] ورغم تمسك هذا الموقف بندرة اللغة الطبقية، فإننا نعتقد بداهة أن للغة الطبقية وجودا بارزا في ساحة علم اللغة الاجتماعي، ويظهر ذلك بشكل جلي في مجال المصطلحات أوفي مجال اللغات الفئوية كاللغات الحرفية مثلا، وهذا ما يعرف في علم اللغة الاجتماعي بــ (الجماعات الكلامية) **speech communities**. وعلى هذا الأساس " شاع استخدام مصطلح (سجل السياق) **register** في علم اللغة الاجتماعي،ونقصد به (النوعيات المعرفة حسب سياق الاستخدام) **According to use varieties** وذلك على عكس مصطلح (اللهجات) الذي نقصد به (نوعيات معرفة حسب المستخدم) **According to user varieties**.... وهذا الفصل ضروري، لأننا نحتاج للتمييز بين وحدات لغوية مختلفة للغاية قد يستخدمها نفس الفرد ليعبر عن نفس المعنى بصورة أو أخرى في مختلف المواقف، ولا ينبغي توسيع مفهوم (اللهجة) حتى يتضمن مثل هذا التباين...".[15]

أصول التداولية:

يحيل الكثير من الباحثين على أن فكرة السياق – وهو عنصر أساسي في التحليل التداولي – تعزى إلى لغويي القرن التاسع عشر، وخاصة الباحث اللغوي فيجنر **Wegner**، حيث قرر " أن السياق هو الأساس أو المحيط الذي تعتمد عليه الحقيقة في توضيحها وفهمها، وأنه لا يتضمن عند الاتصال اللغوي الكلمات فقط، بل الصلات والظروف المحيطة والحقائق السابقة ".(16) وهناك من يردها إلى ظهور الفلسفة التحليلية التي تأسست حديثا على يد فريجيه **Frege**، من خلال " أهم التحليلات التي أجراها على العبارات اللغوية وعلى القضايا، ومنها تمييزه بين مقولتين لغويتين تتباينان مفهوميا ووظيفيا، وهما: اسم العلم والاسم المحمول، وهما عماد القضية الحملية ".(17) وقد أكد باحثون أيضا أن النظرية تعزى إلى نظرية فلسفة اللغة العادية، للنمساوي فيتغنشتاين **Wittgenstein**.

ورغم ذلك كله، فإن الأساس الذي انطلقت منه هذه النظرية هو رفضها لمبدأ التحليل الصوري، ومحاولة دراسة المعنى دراسة علمية، وقد تابعت عمل المدرسة السلوكية باهتمام بالغ، وقبل ذلك، نشير إلى أن المنهج السياقي تبلور مع العمل الذي قام به الأنثروبولوجي مالينوفسكي **Malinowski**، في جزر التروبرياند **Trobriand**، جنوبي الباسفيك،(18) واستنتج " أن الترجمة عاجزة عن نقل المعنى، ويجب أن يقترن كل ذلك بوصف تقاليد وثقافة المجتمعات وبالتالي الإحاطة بالموقف ".(19) وعلى هذا يبني مزاعمه على ملاحظته للطريقة التي توافقت فيها لغة الناس مع نشاطاتهم اليومية، وكانت بالتالي جزءا يتعذر فصله عنها، ومن هنا تأسست مقولته المشهورة " اللغة أسلوب عمل، وليست توثيقا للفكر ".(20)

وقد تأثر فيرث **firth** بهذه الفكرة ثم وجهها أداة للبحث اللساني و" يمكن إذا تلخيص نظرية فيرث في كونها تنظر إلى المعنى على أنه وظيفة في سياق، وهو ما عد تحولا في النظر إلى المعنى بعد أن كان يوصف بأنه علاقة بين اللفظ، وما

يحيل عليه في الخارج، أوفي الذّهن من حقائق وأحداثٍ، تلك النّظرة التي كانت سائدةً في الفلسفة الغربية التّقليدية بعد انحدارها من الفلسفة اليونانية. وربّما كان القارئ للفكر الفلسفي، والمنطقي، والأصولي في تراث العربية قد ألِفَ هذه النّظرة العقلية للمعنى. وهي النّظرة نفسُها التي شرحها أوجدن **ogden** وريتشاردز **richards** في كتابهما معنى المعنى **the meaning of meaning**، وطوّراها فيما عُرف بالمثلّث الدّلالي، ويعدّ ما فعله فيرث في هذا الشّأن نقلةً ابستمولوجيةً أنطولوجيةً كبيرةً في حقل اللّسانيات؛ لأنّها دعمت الموقف السلوكي في ذهابه إلى صعوبة البحث الدّلالي المعتمد على المنطق، والتصوّرات الوجودية المختلفة التي كانت سائدةً في الفلسفة الإغريقية، كما فتحت الباب واسعاً نحو نهجٍ جديدٍ في دراسة المعنى على نحو يراعي الاستخدامات الفعلية للّغة.... وذهب إلى أنّ الوظيفة الدّلالية لا تتأتّى إلاّ بعد أن تتجسّد القولة في موقفٍ فعليٍ معيّنٍ ".[21]

يرى باحثون آخرون – على عكس ما يراه البعض من أن السياق هو مؤسس المقاربة التداولية – أنّ الأساس في مفهوم المصطلح، ينطلق من التّساؤلات حول مفهوم **المعنى**، وقبل الحديث عن هذه التّساؤلات، نشير إلى "وضع موريس التّمييز في إطار تقسيمه الثّلاثي لعلم العلامات **semiotics**: 1- النّحو (النّظم) **syntax**: وهو دراسة العلاقة النّحوية للعلامات **Signs** بعضها ببعض. 2- علم الدّلالة **semantics**: يدرس علاقة العلامات بالأشياء التي تنطبق عليها العلامات. 3- علم الاستعمال **pragmatics**: يبحث علاقة العلامات بالمفسّرين... فعلم الاستعمال إذن دراسة لغوية تركّز على المستعملين للّغة وسياق استعمالها في عملية التّفسير اللّغوي بجوانبها المتنوّعة... ".[22]

" إنّ كلمة (المعنى) من الكلمات الغامضة غموضاً مألوفاً بين الفلاسفة وعلماء اللّغة على السّواء. ومن الضّروري أن نفصل أوّلاً بعض استعمالاتها الرّئيسية:

1- كثيرا ما نستعمل الفعل " يعني " **to mean** كمرادف للفعل " يقصد " **to intend** كما في الجملة "أنا أعني أن أزورك غدا". واستنتج بعضهم من هذا الاستعمال أن معنى الجملة يتم تحليله في حدود قصد المتكلم أو الكاتب.

2- كثيرا ما نستعمل كلمة " يعني " فيما يسمى باستعمالها الانفعالي **emotive**، مثلما نقول إن (الكريكيت تعني القدر بالنسبة لي) وهذا مكافئ للقول إنني مهتم بشدة بلعب الكريكيت، وإنني أقضي جزءا من الوقت في مشاهدتها، والمناقشة حولها...

3- ولطالما نستعمل كلمة " يعني " حيث تكون مرادفة مع " إشارة إلى " أو" علامة على " كما في الجملتين التاليتين: (الدخان يعني النار)، و(انخفاض البارومتر يعني المطر). ويجب أن نميز هذا الاستعمال بعناية عن الاستعمال التالي:

4- استعمال الفعل " يعني " حيث يكون الموضوع كلمة أو رمزا آخر ما (أو جملة) مثلما نقول إن كلمة منضدة تعني شيئا **object** من نوع معين.

إن الاستعمال الأخير هو موضع اهتمامنا، لأنه يمثل حجر الزاوية للنظرية العلاقية للمعنى، ومؤدى هذه النظرية أننا يجب أن نضع تمييزا صارما بين اللغة من جهة و(الواقع) من جهة أخرى، وأن القول بأن أية كلمة لها معنى هو الكلام عن علاقة ما بين الكلمة كصوت أو علامة وبين شيء موجود في العالم الخارجي،(23) وهكذا تلاحظ أن مفهوم المعنى عند هؤلاء انبنى على مفهوم الدلالة الطبيعية وغير الطبيعية وهي أحد أهم أسس التداولية، "ويفترض مفهوم الدلالة غير الطبيعية أن لا يختزل دائما تأويل قول ما في الدلالة اللغوية التواضعية للجملة الموافقة له. إذن يوجد فرق بين ما **قيل** **dit** (الدلالة اللغوية التواضعية للجملة) وما تم **نقله** **transmis** أو ما تم **تبليغه** **communique** (تأويل القول). ويوافق هذا التمييز الذي أهمله سيرل **Searle** مفهوم الاستلزام الخطابي. فالدلالة هي ما قيل، والاستلزام الخطابي هو ما تم تبليغه، ويختلف ما تم تبليغه عما قيل".(24)

وعلى هذا الأساس، تأسّست مقولة دراسة الاستعمالات الفعلية لحظة الكلام، ورغم هذه الأسس التي انطلقت منها الدّراسات التّداولية، إلاّ أنّ القارئ تختلط عليه في كثيرٍ من الأحايين المفاهيم المتعدّدة، ولا يكاد يفرّق بين المجال التّداولي والتّخاطبي والاجتماعي، وهلمّ جرّاً، ولذلك نرى الباحث " طه عبد الرّحمن " يؤسّس مقولة التّداول على أساس التّفريق بين المجالات القريبة من هذا الحقل، وذلك من خلال مشروعه " تجديد المنهج في تقويم التّراث "، يقول معرّفاً بداية التّداول: " من المعروف أنّ الفعل " تداول " في قولنا " تداول النّاس كذا بينهم " يفيد معنى " تناقله النّاس وأداروه فيما بينهم "؛... أمّا عن المعنى الاصطلاحي الذي نستعملها فيه، فقد أردنا أن يكون موصولاً بهذا المدلول اللّغوي وصلاً، لأنّ هذا الوصل هو الذي يجعل أوصافه الإجرائية مألوفةً ومقبولةً، وينقل إليها الإنتاجية الموروثة والمبثوثة في هذا المعنى الأصلي. وعلى هذا، فالتّداول، عندنا، متى تعلّق بالممارسة التّراثية، هو وصف لكلّ ما كان مظهراً من مظاهر التّواصل والتّفاعل بين صانعي التّراث من عامّة النّاس وخاصّتهم، كما أنّ المجال، في سياق هذه الممارسة، هو وصف لكلّ ما كان نطاقاً مكانياً وزمانياً لحصول التّواصل والتّفاعل. فالمقصود بــ " مجال التّداول " في التّجربة التّراثية، هوإذن محلّ التّواصل والتّفاعل بين صانعي التّراث".[25]

ونفهم من هذا الكلام أن التّداول قوامه التّواصل والتّفاعل بين صانعي التّراث، بغضّ النّظر عن نوع هذا التّراث، وعلى هذا يؤسّس مقولته التّفريقية بين التّداول وغيره من المجالات المتلاقحة معه، حين يؤكّد مؤسّساً: " اعلم أنّ مجال التّداول ليس هو (المجال الثّقافي الاجتماعي) وإن كان يشاركه في بعض أوصافه؛ فهو، وإن تعلّق بالثّقافة مثلَه، فإنّه لا يتناول منها إلاّ ما دخل حيز التّطبيق وأثّر في الجانب العملي في الحياة الثّقافية... واعلم أيضاً أن مجال التّداول ليس هو(المجال الفكراني) أي الإيديولوجي وإن كان يشترك معه في بعض الخصائص؛ فهو، وإن تعلّق بالقيم مثله، فإنّه لا يتّخذ منها إلاّ ما كان مبنياً على حقائق معيّنة ومستنداً إلى الواقع الحيّ، في حين

تكاد الفكرانيات التي هي منظومات من القيم الاعتقادية لا تلتفت إلى حقائق الواقع إلاّ من جهة موافقتها لهذه القيم... واعلم أخيراً أنّ مجال التّداول ليس هو(المجال التّخاطبي) وإن كان يتّفق معه في بعض الأوصاف؛ فهو، وإن تعلّق بالأقوال والمعارف والمعتقدات المشتركة مثله، فإنّه يتناولها بوصفها مستعملةً استعمالاً شاملاً لا جزئياً، دائماً لا وقتياً، أمّا المجال التّخاطبي، فتدخل فيه هذه العناصر التّداولية بوصف المتكلّم والمخاطب مستحضرين لبعضها عند فتح باب التّخاطب بينهما... ".(26)

وهكذا تتأسّس بعض مميّزات المجال التّداولي، وتتّضح قيمته من خلال المجالات الأخرى، فالميزة الأولى تتمثّل في مفهوم التّطبيق والممارسة، بعكس المجال الثّقافي الذي ينحصر في المجال المعرفي، والميزة الثّانية هو تعلّقه المستمرّ بالوقائع الحيّة، ولا يشترط في ذلك تطابقها مع القيم، والميزة الأخيرة التي حدّدها الباحث تمثّلت في مفهوم شمولية الخطاب وديمومته؛ أي عدم ارتباطه بوقتٍ معيّنٍ تبعاً لخطابٍ معيّنٍ.

يطلق بعض الباحثين على التّداولية مصطلحاتٍ عديدةً، منها اللّسانيات التّواصلية " التي تقوم على منظومة ثلاثية الأقطاب أولّها المرسل، باعتباره صاحب المبادأة في التّواصل، وثانيهما المستقبل باعتباره هدفاً مباشراً للرّسالة. وثالثهما المجتمع، باعتباره مصدر العلاقة بين أطراف التّواصل، وباعتباره كذلك مصدر النّظام الذي تبتنى على أساسه هذه العملية ".(27)

ويمكننا أن نذكر بأنّ الدّراسات الوظيفية كان لها عميق التّأثير في الدّراسات التّداولية، بل كانت التّمهيد للتخلّص من الدّراسات البنيوية التي لم تقدّم – على رأي المهتمّين بهذا المجال – حلاّ لوجود الخطاب وتمكّنه، وعلى هذا " تعدّ الدّراسات التّخاطبية امتداداً، واستكمالاً لجهود المدرسة الوظيفية، وتأتي هذه الدّراسات نتيجةً طبيعيةً لشعور المهتمّين بها بإخفاق النّموذج التّقليدي للتّخاطب **traditional model of communication** في تقديم تفسيرٍ ناجحٍ لعملية التّخاطب. ويمكن تلخيص أوجه الإخفاق فيه في كونه يتعامل مع التّخاطب في عزلةٍ عن

السّياقات الفعلية التي تُستخدم فيها اللّغة، ويصبغ عملية التّخاطب بطابعٍ مثاليٍ تتجاهل فيه قضايا اللّبس، والخروج عن المواضعات اللّغوية، وقصر وظائف اللّغة على عملية الإبلاغ، وإهمال الأصول التّخاطبية المفسّرة لمقاصد المتكلّمين ".(28)

وهكذا يمكن القول إنّ مهام التّداولية تنحصر في:

1- دراسة (استعمال اللّغة)، التي لا تدرس (البنية اللّغوية) ذاتها، ولكن تدرس اللّغة عند استعمالها في الطّبقات المقامية المختلفة، أي باعتبارها (كلاماً محدّداً) صادراً من (متكلّمٍ محدّدٍ) وموجّهاً إلى (مخاطبٍ محدّدٍ) (بلفظٍ محدّدٍ) في (مقامٍ تواصليٍ محدّدٍ) لتحقيق (غرضٍ تواصليٍ محدّدٍ). 2- شرح كيفية جريان العمليات الاستدلالية في معالجة الملفوظات. 3- بيان أسباب أفضلية التّواصل غير المباشر وغير الحرفي على التّواصل الحرفي المباشر. 4- شرح أسباب فشل المعالجة اللّسانية البنيوية الصّرف في معالجة الملفوظات...(29)

وهذا الباحث "عبد السّلام المسدّي" يؤمّن فهم المصطلح، حين يعرض لمفهوم الوظيفة الانتباهية، عكس ما قالت به لسانيات جاكوبسون، يقول: " فإذا كانت الوظيفة التّعبيرية تنبثق عن المرسل كلّما تركّز الكلام عليه، وكانت الوظيفة الإفهامية تنبثق عن المرسل إليه، والوظيفة المرجعية تصدر عن المرجع المتحدَّثِ عنه، والوظيفة الانعكاسية تحيل على السّنن المرتّبة لقوانين نظم الكلام، والوظيفة الشّعرية تتولّد عند تكثيف القصد الأدائي على الرّسالة ذاتِها، فإنّ الخطاب إذا ما تركّز على أداة الاتّصال المرتبطة بالمجال الموفّر لاحتكاك الباثّ بالمتقبّل فالوظيفة المنبثقة عندئذٍ هي الوظيفة الانتباهية...".(30)

إنّ هذا المفهوم وغيرَه مؤسّس على مفهوم الكفاية التي تعدّ شرطاً لا يُستغنى عنه في فهم المقاصد، وعلى هذا يفرّق الباحثون بين مفهومها في اللّسانيات وفي التّداولية، أي بين الكفاية اللّسانية والكفاية التّداولية، " فالكفاية الاتّصالية **communicative competence** هي البديل المفهومي المنهجي للكفاية اللّغوية في

النظرية النحوية عند تشومسكي... فالكفاية اللغوية من وجهة نظر أصحاب نظرية الكفاية الاتصالية في أن يناسب الاختيار الموقف الاتصالي والمقصد الاتصالي... ".[31] ويمكن القول وفق هذا الرأي إن " تحليل الخطاب من هذا المنظور يعني تحليل الظواهر التلفظية التالية:

- الأمارات **Indices** الدالة على المتكلم وكيفية انبجاسه في الخطاب.
- استكشاف هوية المخاطب.
- استكشاف موضوع الخطاب (قضايا المرجع **Référent**).
- استكشاف مواقف المتكلم حيال خطابه الشخصي.
- استكشاف الأمارات الدالة على المكان والزمان...[32]

وإذا كانت الكفاية اللسانية تستلزم معرفة المعاني المعجمية والمعاني النحوية، قبل القدرة على توظيفها كلاما، فإن " المعاني البراجماتية لا يمكن إدراكها... اعتمادا على الدلالة المعجمية للكلمتين والمعنى النحوي لهما...؛ إذ لا بد من الإحاطة بالمقام الذي تقال فيه العبارة. ثم إن الإحاطة بالمقام تستدعي في كثير من الأحيان الإحاطة **بالمرجعية الثقافية (Culture) وعناصرها المادية والمعنوية والتاريخية والدينية والأدوار الاجتماعية المتوقعة من الأفراد والجماعات فيها**... ".[33] ولا يتم حصول عملية الإفهام والفهم إلا بالاتكاء على معرفة السياق وفقا لهذا المنهج الذي يتيح للمرسل التلفظ بخطابه بتوظيف كل هذه المستويات، ومن فضول القول إن المرسل قد لا يكون دارسا لغويا، يشهد على ذلك ما نعايشه من خطابات متنوعة لمن يوصفون بالبسطاء والعامة. " وهكذا فإن مباشرة القارئ لنص ما تفترض:

1- الاعتماد على معرفة سياق الحديث **(contexte énonciatif)** وتتفرع هذه النقطة إلى:

- معرفة الفترة الزمنية.
- معرفة المؤلف.

– معرفة الظّروف القريبة والبعيدة.

– الجنس الذي ينتمي إليه الخطاب.

2– معرفة نحو اللّغة (نحو الجملة).

3– امتلاك مجموعة من القواعد المتعلّقة بتنظيم النصّ (نحو النصّ).[34]

وبالنّظر إلى هذه المعطيات، فإنّ الباحث في مضامين التّداولية سيلاحظ وضعاً جديداً على رُقعة المقاربة بين القارئ والمتكلّم والخطاب، وهكذا تنشأ "العلاقة بين القارئ / المتلقّي، والنصّ / الخطاب، علاقة تتمثّل في أمورٍ ثلاثةٍ هي: **أوّلاً**: يتمثّل المتلقّي في علاقته مع الخطاب في نوعين من الأفعال؛ فعل ناقص، ويتجلّى في المتلقّي السّلبي الذي يكتفي بفهمه للخطاب كيفما يكون، وفعل زائد، ويتجلّى في المتلقّي الإيجابي الذي يحوّل فهمه للخطاب إلى تفسير أو تأويل. وهذا يعني أنّه لا ينتج الخطاب الأصل، ولكنّه ينتج خطاباً فهمه على الخطاب الأصل. **ثانياً**: إنّ المتلقّي، في إعادة إنتاجه للخطاب إنْ تفسيراً وإنْ تأويلاً، إنّما من نقصه ينهل لا من تمام الخطاب. وإنّه سيبقى دونه تماماً ناقصاً. ولذا، فإنّ صورة الخطاب الأصل ستكون في إدراكه لها، سبراً وفهماً ومعايشةً، على مثاله نقصاً لا على مثال مرسله تماماً وكمالاً. **ثالثاً**: إنّ التّفسير ناتج ثقافي، قائم على الممكن والنّسبي، وحاصل في الأفهام على مقدار اختلافها وتفاوتها. ولأنّه كذلك، فهو رهن بشروطٍ تاريخيةٍ وزمانيةٍ، وبظروفٍ ذاتيةٍ وإنسانيةٍ بحتةٍ، بينما الخطاب الأصل فمُنتجٌ ثقافي، وهذا ما يجعله على الدّوام للتّاريخ مجاوزاً، وعلى الزّمان متقدّماً، وأمام الظّروف الذّاتية والإنسانية لا خلفها ".[35]

وقد "أصبح مفهوم الفعل الكلامي **speech act** نواةً مركزيةً في الكثير من الأعمال التّداولية. وفحواه أنّ كلّ ملفوظٍ ينهض على نظامٍ شكليٍ دلاليٍ إنجازيٍ تأثيريٍ. وفضلاً عن ذلك، يعدّ نشاطاً مادّياً نحوياً يتوسّل أفعالاً قوليةً **actes locutoires** لتحقيق أغراضٍ إنجازيةٍ **actes illocutoires** وغاياتٍ تأثيريةً **actes perlocutoires** تخصّ ردود فعل المتلقّي كالرّفض والقَبول. ومن ثَمَّ فهو

فعل يطمح إلى أن يكون فعلاً تأثيرياً، أي يطمح إلى أن يكون ذا تأثيرٍ في المخاطب،اجتماعياً أو مؤسّساتياً، ومن ثَمَّ إنجاز شيءٍ ما ".(36)

ومهما يكن من أمرٍ فإنّ التّداولية فتحت ذراعيها للدّراسات التي تؤسّس لمفهوم التّأويل والقصد، وقد غدا مهمّاً أن نهتمّ بهذا الفرع من الدّراسة إجراءً يساعدنا في تلمّس طبائع الأقوال في المجتمع، ولا يمكننا بأيّ حالٍ من الأحوال – كما يعتقد البعض – أن نستغني عن هذا الإجراء، ولا يجب أن نتناسى، ونحن نرفض هذا المنحى أو نعدّه جمعاً لفضلات البنيوية، " أنّ محلّل الخطاب، بإيجازٍ، يعالج مادّته اللّغوية بوصفها مدوّنةً (نصّاً) لعمليةٍ حركيةٍ استُعملت فيها اللّغة كأداةٍ توصيليةٍ في سياقٍ معيّنٍ من قبل متكلّمٍ أو كاتبٍ للتّعبير عن معانٍ وتحقيق مقاصد (الخطاب). وانطلاقاً من هذه المادّة، يسعى المحلّل إلى وصف مظاهر الاطّراد في الإحداثات اللّغوية التي يستعملها النّاس لإيصال تلك المعاني والمقاصد... إلاّ أنّ هناك وجوهاً أخرى للاختلاف في المنهج المتوخّى في تحليل المعلومات اللّغوية بين محلّل الخطاب واللّساني الشّكلاني، ممّا يؤدّي إلى استعمالٍ متخصّصٍ لبعض المصطلحات. فبحكم دراسته لاستعمال اللّغة في سياقٍ معيّنٍ من قبل متكلّم / كاتب، فإنّ اهتمام محلّل الخطاب ينصرف إلى فحص العلاقة بين المتكلّم والخطاب في مقامٍ استعماليٍ خاصٍّ، بدرجةٍ أكبر من تتبّعه للعلاقة الممكنة بين جملة وأخرى بصرف النّظر عن واقع استعمالها، أي أنّ محلّل الخطاب حينما يستعمل مصطلحاتٍ مثل الإحالة والافتراض والمعنى الضّمني والاستدلال، فإنّه في الواقع يصف ما يفعله المتكلّمون والمتلقّون، ولا يهتمّ بالعلاقة القائمة بين جملةٍ أو مضمونٍ ما وجملةٍ أخرى ".(37)

وعلى هذا يتأسّس مفهوم الفعل الكلامي في تحليل اللّغة أو الخطاب، ويبني محلّل الخطاب وفقاً لذلك رؤيته للّغة المراد تحليلها فعلاً لغوياً استناداً لبعض الأدوات والآليات التي تساعده في الكشف عن مقاصد المتكلّم ومقصديات المتلقّي؛ أي عن

مقاصد الحوار بشكلٍ عامٍّ، ويتمّ ذلك من خلال أربعة عناصر تمثّل مفهوم استراتيجية الخطاب التي تعني "أنّ الخطاب المنجز يكون خطاباً مخطّطاً له، بصفةٍ مستمرّةٍ وشعوريةٍ. ومن هنا، يتحتّم على المرسل، أن يختار الاستراتيجية المناسبة، التي تستطيع أن تعبّر عن قصده وتحقّق هُدفه بأفضل حالة... وتتدخّل عناصر السّياق الاجتماعية في تحديد استعمالات اللّغة، وفي انتشار بعض الاستراتيجيات على حساب انحسار البعض الآخر، مثل استعمال استراتيجية التأدّب، مقابل استراتيجية الجفاء... وليتواصل المرسل مع غيره بالخطاب، عبر استراتيجيةٍ معيّنةٍ، يقتضي أن يمتلك كفاءةً تفوق كفاءته اللّغوية، ليتمكّن بها من تحقيق ذلك، ويمكن تسمية هذه الكفاءة، بالكفاءة التّداولية".(38) وهذه الأنواع هي: التّضامن أو التّعاون وهو إحدى أهمّ مبادئ التّحليل التّداولي، والتّوجيه، والتّلميح، والإقناع أو الحجاج، وسيتمّ تقديم النّماذج التّحليلية من القصيدة قيد الدّراسة وفق العناصر المذكورة للتوّ.

أوّلاً: الإستراتيجية التّضامنية:

تُعرف هذه الإستراتيجية عند المختصّين في التّداولية، "بأنّ المُرسِل هو الذي يحاول أن يجسّد بها درجة علاقته بالمرسل إليه ونوعها، وأن يعبّر عن مدى احترامه له ورغبته في المحافظة عليها، أو تطويرها بإزالة معالم الفروق بينهما، وإجمْالاً هي محاولة التقرّب من المرسل إليه، وتقريبه. وإذا كانت العلاقة بسيطةً بين طرفي الخطاب، أولا يوجد بينهما أيّ نوعٍ من أنواعها، فإنّ المرسل يسعى إلى تأسيسها بالتلفّظ بالخطاب؛ بأن يتقرب من المرسل إليه، بما يجعله واثقاً بأنّ المرسل إليه يميل إليه ميلاً طبيعياً خالياً من أيّ دوافع أو أغراض منفعية...".(39)

ولتطبيق هذه الاستراتيجية، يجب معرفة أدواتها وآلياتها التي تقوم بتحسين العلاقة بين المتكلّم والمتلقّي؛ ذلك أنّ نجاح أو إنجاز الخطاب مرهونٌ بالتّأسيس للعلاقة التّضامنية والتّعاونية بينهما، ويبدأ هذا التّعاون أو التّضامن مع توظيف اسم العلم إنْ اسماً أو كُنيةً أو لقباً حسب المقام الذي يستدعيه هذا الاستعمال.

وقد أبدع الشّاعر صاحب الياقوتة * في التّعامل مع أسماء الأعلام خاصّةً وأنّ الدّلالة المحورية للقصيدة تتمحور حول هذه القضية، يقول الشّاعر:

وسَمَّيْتُهَا اليَاقُوت رِفْعاً لِقَدْرِ مَــا * تَسَلْسَلَ فِيهَا مِنْ شيوخٍ عَدِيدَة ب 171. *

ومن هنا فإنّ مفتاح القصيدة هو عنوانها المتمثّل في التّلميح إلى وجود علاقةٍ بين اسم العلم والتّسلسل البديع الذي تتّصف به الياقوتة، وعلى هذا يدخل مفكّك شفرات النصّ وهو مزوّد بالدّلالة المركزية التي تنبّه بعلاقات التّضامن التي أسّسها الشّاعر في انتقاء الأعلام للتّأكيد على فاعلية هذا التّضامن في الولوج إلى المفاهيم التي أرادها الشّاعر.

وتأسيساً على هذا فإنّ بداية التّضامن تبدأ مع توظيف اسم علمٍ هو النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهي تُنْبئ عن محاولة الشّاعر كما تفعل الصّوفية الولوج إلى الخطاب من باب الصّلاة على النّبي، ولكنّ الشّاعر لم يذكر اسم العلم ظاهراً وإنّما استعمل الصّفة التي تدلّ عليه، وغالباً ما يستخدم الأفراد في خطاباتهم اليومية الكنى أو الألقاب حين يحسّ المتكلّم أنّه أقلّ درجة من المتلقّي، فيضطرّ لإنجاح خطابه أن يعمل على وتر مبدأ التّعاون، وذلك من خلال مناداته باللّقب أو الكنية، وعليه فإنّ الشّاعر لجأ لتحقيق هذا المبدأ في التّعبير عن لفظ النّبي إلى لفظ الهادي أو لشّفيع وهي من صفات النّبي صلى الله عليه وسلّم، يقول:

وَأُهْــدِي صَلاَةً ثُمَّ أَزْكَ،ى تَحِيَــةً * عَلَى المُجْتَبَى الهَادِي شَفِيعِ البَرِية. ب 02.

وإذا تأمّلنا خطاباتنا اليومية في توظيف الصّلاة على النّبي سنجدها عند العامّة خطاباتٍ عاديةً توظّف فيها الصّلاة بالشّكل المتعارف عليه؛ أي صلى الله عليه وسلم، أمّا العارفون فإنّنا نجدهم يصلّون على النبي بأشكال مختلفةٍ تماماً لأنّهم يدركون جيّداً سمو مكانة النبي، ولذا فَهُمْ يُبدعون هذه العلاقة ويبنونها على أساس التّضامن مع المتلقّين.

ولا نرى مستوى إبداع العلاقة على مستوى الأعلام الخاصّة بالأنبياء، بل كذلك في استخدام الأعلام في مواضعها، وذلك حينما يحيلنا على اسمه بالكنية لا بالاسم، يقول:

فَإِنِّي عَبْــدُ القَـــادِرِ بْــنُ مُحَمَّــدٍ * سَلِيلُ أَبِي الرَّبِيعِ نَجْلُ السَّمَاحَةِ. ب89.

ويشيع استخدام الكُنى في المجتمعات كثيرًا إمّا للتّعبير عن الاحترام والتّقدير، وإمّا للتّعريف بابن الشّخص أو أبيه أو عائلته أو نسله، وهذه هي الغايات في توظيف الكنية بدلاً من الاسم، والشّاعر هنا عرّف بنفسه كنيةً فهو عبد القادر بن محمّد بن سليمان بن أبي سماحة كما ورد في المخطوطات ويلقّب بسيدي الشّيخ، وهو يصل في الشّطر الثّاني من البيت إلى نسله الذي ينحدر من السّماحة، ولكنّ المتأمّل في البيت الذي يلي هذا البيت يرى وكأنّه، بالإضافة إلى التّعريف بنسله، يريد أن يحقّق مقصداً آخر وهو القرب من صفات النّبي صلى الله عليه وسلم أو التقرّب من أخلاقه، ولذلك نلمحه يقول:

وَلاَ فَخْرَ غَيْــرَ أَنِّي عَبْــدٌ لِقَــادِرٍ * وَأَحْمَدُ تَاجُ الرُّسْلِ أَقْوَى وَسِيلَةِ. ب90.

وهكذا يؤسّس الشّاعر مبدأ التّعاون من خلال التّعامل مع كلّ اسم علمٍ تعاملاً مقامياً بحسب ما تستدعيه الحاجة ولا يتناسى الشّاعر وهو يحدّد مقاصده أن يوظّف المعجّم الصّوفي في رؤيته للأسماء والكنى والألقاب ويتمثّل ذلك في إضفاء اللّمحات والصّفات الصّوفية بدلاً من اسم العلم وهذا ما يُطلق عليه **ألفاظ المعجم** كأداةٍ يحلّل بها الخطاب، وهذا نلمحه غالباً في الخطابات اليومية حين نستعمل بعض الألفاظ المتداولة في سياقها التّضامني من قبيل مبروك وأهنئك وأهلا وسهلا وغيرها، وأحياناً لا تكون في سياقها المباشر، كأن نقول مثلا: أنت مثالي الأعظم، دليل على التضامن مع المتلقّي.

ووفقاً لما ذكرنا نجد الشّاعر يعطي هذه الأوصاف التي تعدّ بمثابة معجمٍ تداولِي فئوي، ليحاول تحقيق التّضامن كمبدأ جوهري في الخطاب بدل أن يستعمل

الاسم مباشرة، وعلى ذلك نجد الشاعر أحياناً يعرف بالاسم صفةً، وأحيانا يبدأ بالصّفة ويترك ذكر الاسم آخراً، فمن المثال الأول؛ أي ذكر الصّفات فقط، نجده يقول:

وَغَوْثُ اسْتِغَاثٍ ثُمَّ جِرْسُ عُلُومِهَا * وَقُطْبٌ لَهُ أَعْلَى مَقَامِ الوِلاَيَةِ. ب117.

فَشَيْخُ الشُّيُوخِ ذَاكَ شَيْخُ زَمَانِنَـــا * إِلَيْهِ انْتَهَتْ فُنُونُ هذه الطَّرِيقة. ب118.

وفي هذين البيتين نجد مفرداتٍ استُعملت لتدلّ على عالمٍ من علماء الصّوفية، ومن هذه المفردات كلمات الغوث والجرس والقطب والولاية والشّيخ والطّريقة[40]، وكلّها مفردات لا يعرفها إلاّ المتخصّصون في هذا المجال، وعليه فإنّ مبدأ التّضامن والتّعاون يكون تأسيساً على الخلفيات المتعارفة بين طرفي التّواصل، وهذه المفردات إذا تمّ التعرّف عليها حصل بذلك تمام الاتّصال وفق مبدأ التّعاون، لأنّنا سنعرف بذلك سرّ استعمال النّاظم لمثل هذه المفردات المعجمية مكان اسم العلم.

أمّا المثال الثّاني فيندرج ضمن ذكر مفردات المعجم الصّوفي إضافةً إلى ذكر اسم العلم بعد ذلك، يقول:

عن الشيخ شيخ الكل سر هداتهم * إمام كفياض البحور وقدوة. ب143.

به يستغيث الكل شرقـــا ومغربـــا * أبي حامد الغزالي عين العناية. ب144.

وكما ترى فالشّاعر يضفي على اسم العلم الكثير من الصّفات والمفردات التي يتواصل بها أهل الصّوفية، وقد يبدو للوهلة الأولى للقارئ أنّ هذه الصّفات إنمّا هي مجرّد كنايات وتشبيهاتٍ يستخدمها الشّاعر للمدح، ولكنّ هذه التّشبيهات والكنايات تحولّت عند هؤلاء إلى تعبيراتٍ اصطلاحيةٍ تداوليةٍ ومنه انتقلت إلى مفهوم المعجم التّداولي الذي يحمل مفهوم دلالة المفردة كما تكلّمها أصحابها في زمنها. وبغضّ النّظر عن المثالين السّابقين فإنّ النّاظم يحاول أن يتجاوز مجرّد استعمال الصّفات للحديث عن اسم العلم، بل يستخدم أيضاً ألفاظاً تدلّ على التّضامن، من قبيل استعماله كلمة القدوة كخطابٍ غير مباشرٍ دالٍّ على التّضامن، يقول:

سلكت طريقا لم يطأهــا خلافنــا * ولم يسلكنها غيرنا من خليفة. ب33.

سوى سلف لنا قفونــا آثارهــم * وهم قدوتي من الشيوخ الأجلة.ب34.

إضافةٍ لكلّ ما ذكرنا قد يلجأ صاحب الخطاب لتحقيق التّعاون بينه وبين القارئ إلى استخدام آليات أخرى من مثل **المكاشفة** وهي إظهار الاسم أو إخفاؤه، وقد سبق وأن عرضنا لذلك وتستخدم الكنايات كثيراً ببعض الأدوات اللّغوية كأداة (كم) التي تدلّ على كثرة الشّيء أو هول وعظم الأمر، وقد يكون المتلقّي على علمٍ بالعدد أو عظم الأمر، فيتحقّق بذلك التّضامنُ، ومن أمثلة ذلك قول الشاعر:

حويت لكم كم مراتــب حزتهــا * ولا أنست بدون غيره همتي. ب43.

وإذا تأمّلنا هذا البيت نجده يوظّف أداة (كم) أمام مفردة (المراتب)، وهذا إمّا يدلّ على عظم هذه المراتب في مفهوم الصّوفية إلى حدّ عدم العلم بها أولا نهايتها، أو كثرة هذه المفاهيم، وهكذا فكلا المفهومين يدلّ على التضامن من خلال استخدام هذه الأداة التي توجّه القارئ إلى الإحساس بالدّرجة التي وصلت إليها الدّلالة. ففي الاحتمال الأوّل تأتي (كم) معبّرة عن لا نهائية المعنى، ولذلك يقول الشاعر قبل أن يصل إلى نظم هذا البيت:

وردت بحور الحب فازداد محوها * وغبت فزاد الغيب صفوا لحضرة. ب37.

ولفظة (البحر) تدلّ في المفهوم الصّوفي على لا نهائية المعارف، وتُذكر مقترنةً مع عدم وجود الشاطئ، " ويعني بذلك أنّ الحال الذّي خصّهم الله به من التعظيم وخالص الذّكر لــه والانقطاع إليه، لا نهاية له ولا انقطاع... ".(41)

وبالإضافة إلى المكاشفة الصريحة وغير الصريحة، فإنّ نُكران الذّات يدلّ أحياناً على التّعاون في بناء الخطاب، وذلك حين نستخدم في مخاطباتنا اليومية مفرداتٍ تدلّ على ذلك، من قبيل القول: إنّ هذا الجهدَ هو جهدُ الجميع، مع أنّ الذي قام بالعمل هو فردٌ واحدٌ، وليحاول النّاظم استخدام إستراتيجية التّوجيه، وذلك بالنّصح

والإرشاد إلى الطّريق السّليم، فإنّه يؤسّسها على مبدأ التّعاون، فنلمحه ينصح مستخدماً ضمائر المتكلّم التي تدلّ على الذّات، ثمّ في بيتٍ من شعره يلي هذه الأبيات، نراه ينكر ذاته ويلتفت من استخدام ضمائر المتكلّم إلى استخدام المصدر، يقول:

بل الذكر أقوى ثم أولـــى لسيمـــا * إذا استشعر القلب نعوت الحميدة. ب61.

وكما نرى فإنّنا نفهم من سياق الكلام أنّ النّاظم يحاول أن ينصحنا بإتباع الذّكر وباستشعار القلب للنّعوت الحميدة؛ وذلك يحيلنا على أنّه يوصل رسالةً هي أنّه قد قام بهذا العمل حتىّ تمكّن من النّصح به.

ثانيا: الإستراتيجية التوجيهية:

إذا كانت الإستراتيجية التّضامنية تنبني على محاولة البحث عن آليات التّعاون في بناء الخطاب، فإنّ " لخطاب ذي الإستراتيجية التّوجيهية يعدّ ضغطاً وتدخّلاً، ولو بدرجاتٍ متفاوتةٍ،على المرسل إليه، وتوجيهه لفعلٍ مستقبليٍ معيّن، وهذا هو سبب تجاوز المرسل لتهذيب الخطاب، من خلال استعمال بعض الأساليب والأدوات اللّغوية التي لا تتضمّن بطبيعتها ذلك؛ فتهذيب الخطاب يأتي لديه في المقام التّالي، في حين يتقدّمه مرتبة تبليغ المحتوى. وتنقسم أصناف المرسل إليه، عند استعمال هذه الإستراتيجية، إلى صنفين؛ الأوّل: المرسل إليه في عدم حضوره العيني عند إنتاج الخطاب، الثّاني: المرسل إليه الحاضر لحظة التلفّظ بالخطاب... .[42]

ويلجأ صاحب الخطاب أحياناً إلى الاستعانة بآليات التّوجيه حسب المقام الذي يستدعيه استخدام الخطاب، فتارةً قد لا يجد المتكلّم خياراً أمامه إزاء موقفٍ لا يحتاج فيه إلى إضفاء الخطاب نوعاً من التّضامن والتّعاون، فيضطرّ إلى توجيه خطابه بآلياتٍ لا تعبّر عن التعاون، ومن هذه الآليات (الأمر) الذي يُعدّ من وسائل التّوجيه إلى فعل الشّيء، والأمر كفعلٍ كلاميٍ قد يحمل دلالاتٍ عديدةً في إطار التّوجيه، قد تتحوّل إلى النّصح أو إلى الرّدع وغيرها من هذه المعاني، وتارةً أخرى يستخدم

الأمر بالأداة، أو بالفعل، وأحياناً يستخدم بألفاظ المعجم التي تدلّ على الأمر ضمناً، وقد استطاع النّاظم، لتحقيق مقاصده المتمثلة في إقناع الطرف الآخر بانتمائه، أن يستخدم في التوجيه الأداة والفعل واللفّظ المعجمي، فمن استعمال الأداة نجده يقول:

فدونك فاشرب وارتومن بحورنـــا * فلها شفا من الأهواء المضلة. ب57.

ومن الفعل قوله:

فصدق فإن الصدق أرفـــع رتـــــبة * لمن يبتغي وصولا فاحفظ مقالة. ب65.

ومن اللفظ قوله:

لقد شهد الــمولى بأني نصيحكم * وأني على نصح جدير بخبرة. ب66.

بالإتباع نلنا المراتــــــب والعلــى * فبالله ما حدنا عن شرع وسنة. ب91.

وكما ترى، فإنّ الشّاعر يحاول أن يوجّه قارئه بالأمر بكلّ أنواعه، وهذا التّنويع انجرّ عنه معاني النّصح أكثر من الرّدع؛ ذلك أنّ أسلوب النّاظم أسلوب حجاجي؛ ولذلك فتوجيهه لم يكن ردعاً بقدر ما كان نصحاً. وهذا ما نلمسه أيضاً مثلاً في أسلوب التّحذير أو أسلوب الإغراء أو أسلوب الاستفهام أحياناً، ينظر مثلاً الأبيات 160، 54، 74، 75، 76.

- وأحياناً يوجه المخاطِب قارئَه عن طريق ذكر العواقب التي تنجرّ عن بعض الأفعال، مثل قول النّاظم هنا:

وموت على خلاف ديــن محمــد * ويبتليه المولى بفقر وقلة. ب95.

فالشّاعر هنا يوجّهنا إلى التّمسك بدين محمّدٍ صلى الله عليه وسلّم، بناءً على العاقبة التي تنتظر هذا الذي لا يتمسّك بالدّين الحنيف وهو الابتلاء بالفقر والقلّة.

ثالثاً: الاستراتيجية التّلميحية:

تعدّ الإستراتيجية التّلميحية "إستراتيجية غيَر مباشرةٍ؛ ذلك أنّ استراتيجيات المرسلِ في إنتاج خطابه لا تتجاوز نوعين من حيث شكلُ الدّلالةِ فهي: إمّا إستراتيجية مباشرةٌ يتضحّ فيها القصد مباشرةً دون عملياتٍ ذهنيةٍ للاستدلال عليه. وإمّا إستراتيجية غير مباشرة، تحتاج من المرسل إلى عمل ذهني يتجاوز فيه الشّكل اللّغوي للوصول إلى القصد".(43)

يُبنى الخطاب التّلميحي في أساسه على الأفعال اللّغوية غير المباشرة، وهي التي يحاول المرسل أن ينجزها باستعمال أفعالٍ لغويةٍ أخرى مكانها هي التي تعدّ الأصلَ، أي حينما نقول مثلاً: ألستم خير من ركب المطايا، فإنّ المقصود هنا أي أنتم كذلك. وقد ورد في النصّ الشّعري نماذج كثيرة على هذا المنوال التّلميحي، وذلك بأن استعمل النّاظم أفعالاً لغويةً غيرَ مباشرةٍ كثيرة للدّلالة على الأفعال اللّغوية المباشرة، مثل قوله:

وأي وصول كان من غــير بابنــا * وأي دخول منــه دون إشارة. ب50.

ومن يستغث فينا اضطرارا لغوثنــا * يغاث ولو في قعر بحر وظلمة. ب51

إنّ طرح التّساؤل في البداية يعدّ فعلاً لغوياً غير مباشر؛ ذلك أنّ التّساؤل لا يُنتظر منه جواب بقدر ما يدلّ على التّلميح على أنّه تحذير أو تنبيه من الابتعاد عن المعارف واللّطائف الصّوفية،(44) لأنّها أساس في التّعرف على أمور الدّين الحنيف. كما تعدّ الملمّحات من أهمّ آليات إستراتيجية التّوجيه، وتعرف هذه الملمّحات على أنها أفعال لغوية تؤدّي المعنى غير المباشر الذي يتوقّعه القارئ، فكلمات الظنّ والشكّ تؤدّي أحياناً إلى عدم الاعتراف بالأمر، كما تؤدّي أيضاً معاني التّعاطف، ويعدّ الشّرط وجوابه من هذه الملمّحات؛ ذلك أنّنا قد نعتدّ بالشّرط وقد لا نعتدّ به، ولكنّ المرسل يحاول أن يوجّه خطابه للإقناع فيحتاج إلى التّلميح كي يبني حجّته، يقول النّاظم:

ومن رأى من عيوبنـــا فليداركهـــا * بحلم وليصلحنها بعد التثبت. ب166.

ويُفهم من ضمن الكلام أنّ إصلاح العيوب لا يتمّ إلاّ من داخل البيت الصّوفي وهذا ما يدلّ عليه جواب الشّرط بعد اعتراف النّاظم بوجود العيب، وهو الحلم والتثبت وهما صفتان يتّصف بهما العارف الصّوفي. وعليه فإنّ بنية خطاب الاعتراف بالعيب لما كان مشروطاً بالحلم والتثبّت فهو خطاب حجاجي بالدّرجة الأولى يعتمد التّلميح على أنّه لا يستطيع فعل ذلك إلاّ من تحقّقت لديه مفهوم الإشارة كما فهمها الصوفيون.

ويتأسّس الخطاب التّلميحي أيضاً على مفهوم التّعبيرات الاصطلاحية**idiomatic expression** ، وتُعرف أيضاً بالتّعبيرات المسكوكة، (45) وهذه التّعبيرات هي من المتعارف عليه ومن السّنن اللغوية التي يتوسّل بها المتكلّم لتحقيق مقاصد خطابه، وتمثّلها النّاظم في نصّه الشّعري من خلال توظيف بعض التّعبيرات الاصطلاحية التي تنتظم في قائمة معجم المفردات الصّوفية، وإضافةً إلى هذه السّمة فإنّ النّاظم حاول أن يلمّح من خلال التّعبيرات الاصطلاحية المقتبسة من القرآن الكريم وهو ما يعرف بالاقتباس والتّضمين، ويظهر ذلك في قوله:

تنادي هلم فاخلع النعــل وادخلــن * لك الحكم، أو فيك المكارم حفت. ب42.

فالنّاظم يحاور النصّ القرآني من أجل التّلميح لبعض المقاصد التي يريد تحقيقها؛ ويقال في التّفاسير إنّ موسى عليه السّلام أمر بخلع نعليه، لأنّه أنهى السّفر للاستراحة، وكذلك الشّاعر وظّف هذه العبارة ليبيّن أنّه وصل إلى المقصد الأسنى والأعلى، فقد أنهى رحلته الصّوفية، وبلغ الطّريق به منتهى السّفر، بدلالة حفاوة التّرحيب والتّكريم وحسن الإقامة.(46)

رابعاً: الاستراتيجية الإقناعية:

"ينبني فعل الإقناع وتوجيهه دوماً على افتراضات سابقة بشأن عناصر السّياق خصوصاً المرسل إليه، والخطابات السّابقة والخطابات المتوقّعة"(47)، وهكذا

يغدو "الهدف من الخطاب الحجاجي هو إزالة شكّ المرسل إليه في وجهة النّظر محلّ الخلاف".[48] وهذا يعني بداهةً أنّ المخاطب يسعى إلى حصد أكبر عددٍ من الآليات التي تسمح له بإقناع قارئه وتوجيهه إلى المقصديات التي يريدها.

وهذا ما حاول النّاظم أن يقتفيه لبيان أهمّ الأصول المعرفية التي اقتنع بها، ولذلك نلمسه باحثاً عن الأدوات الكفيلة التي تحسن من العلاقة بينه وبين القارئ من حيث تجليةُ المقاصدِ، ونراه في كثير الأحيان يتوسّل بأدوات التّعليل، أو ألفاظ التّعليل، وهي أدوات لسانية يثبت بها حجّته، بل يجعل من أسلوبه حجاجياً إقناعياً. ويظهر هذا في مطلع خطابه حين يبيّن سبب بدئه بالحمد والثّناء على الله عزّ وجلّ، يقول:

بدأت بحمد الله قصدا لنجح مـــا * أروم من استفتاح نظم القصيدة.ب01.

وكما ترى فقد استخدم النّاظم أحد أهمّ ألفاظ التّعليل والتي تقترب من المفهوم الحجاجي وهي لفظة القصد، وتعني في اصطلاح الصّوفيين "النّية الصّادقة المقرونة بالنّهوض"، [49] كما يقسمونها إلى قسمين، "القصد الأول: هو الذّات الأزلية أو الموجود الأوّل... والقصد الثّاني: هو العلّة التي توجد بين ذوات الممكنات...".[50] وعلى هذا يستحيل لفظ التّعليل حاملاً لكلّ معاني الحجاج، ومنه فقد أسّس للإقناع من خلال أوّل بيتٍ في قصيدته ليحدّد مفهوم النّيّة ومفهوم القصد عامّةً وخاصّةً.

وبغضّ النّظر عن بعض الأساليب التي استخدمها النّاظم ليحتجّ بها لمذهبه، من خلال الاستفهام أو النفي أو الإثبات[51]، فإنّه يلجأ أحياناً إلى التّعليل بالتّلميح دون ذكر التّعليل صراحةً وهو عند العرب أبلغ من التّعليل الصّريح، يقول:

ولست بمدعيّ الرسالة غيـــر مـــا * تحصل لي من إرث علم وحكمة. ب55.

وأنت إذ تتأمّل هذا الخطاب تجده محاولةً لتقديم النّصائح والتّوجيهات حتى يصل هذا الموضع فيحاول أن يقنع محلّ الخطاب وفاك شفراته أنّ ادّعاء هذه

النّصيحة وامتلاكها إنمّا كان لما ورثه من العلوم والحكم من الشّيوخ الذين أخذ عنهم ذلك كلّه، وليس تعسّفاً أو اعتباطاً أو قل اجتهاداً منه.

وتعدّ آلية (التّبادل) آليةً لسانيةً من آليات الإقناع، حيث يستخدمها صاحب الخطاب ليستنتج أنّ ما يحدث لــه هو نفسه الذي يحدث للقارئ، ليعرف القارئ ذلك ويحصل الاقتناع، وذلك كما في خطاب القرآن الكريم وذلك حين أراد أحد أئمة العلم أن يقنع قارون بفضل الله عليه وأن يحسن إلى النّاس، يقول الله تعالى: **﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾**.[52] وتشيع هذه الأداة كثيراً في خطاباتنا اليومية من قبيل قولنا: ضع مكانك نفسي، ليقتنع القارئ بصعوبة الوضع الذي يعيشه المتكلّم. وقد استطاع النّاظم أن يوظّف هذه الأداة لبناء خطابه الحجاجي، يقول:

وأي سلــوك كامــل دون صحبــة * وأي اهتداء شامل دون منحة. ب63.

ومن بين آليات الخطاب الحجاجي اللغوية تحصيل الحاصل، وهو ربط المقدّمات بالنّتائج، يقول النّاظم موضّحاً ارتباط النّتيجة التي وصلها هو بالمقدّمة التي انطلق منها:

بالاتبــاع نلنــا المراتــب والعلــى * فبالله ما حدنا عن شرع وسنة. ب91.

وهكذا يبيّن لنا النّاظم أنّ نيل المرتبة والشّرف وهو النّتيجة، إنّما هي مرهُونة بالمقدّمات التي تتمثّل في عدم الابتعاد عمّا شرعه الله تعالى لعباده، وما أتّمه النّبي صلى الله عليه وسلّم من تفسيرٍ لهذا الشّرع ومن هديٍ كريمٍ.

خاتمة:

وختاماً يمكن القول: إنّ الحديث عن توظيف أدوات وآليات التّداولية في قراءة النّصوص الشّعرية أو النّثرية بشكلٍ عامّ، والتّراث العربي بشكلٍ خاصّ، يحتاج إلى احتياطاتٍ منهجيةٍ، تبدأ مع القراءات المعرفية أو الانطلاق من الجذور الفكرية التي تأسّس عليها الخطاب، وإذا بدأ العمل التّداولي خارج دائرة الخلفيات المعرفية فإنّه سيستنطق النصّ بغير مقاصده، ولذلك فالخطاب التّداولي في حقيقة أمره يؤسّس للّغة الطّبقية أو الفئوية، بمعنى أنّ لكلّ فئةٍ لغتها الخاصّة التي تتعامل بها وتتواصل بها، ولعلّ ما يؤيد نظرنا على سبيل التمثيل هو أداة (إلاّ) الحصرية التي استخدمت في القرآن الكريم لتدلّ على لغة القوم الخاصّة التي جعلت كلّ رسولٍ يتكلّم بهذه اللّغة، يقول تعالى: ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم** ﴾،[53] وبالإضافة إلى هذا، فإنّ تعريف ابن جني للّغة وحصره للغة القوم بلفظ كلّ، دليل على أنّ السّنن تختلف باختلاف تداول الأقوام لها، حين يقول: "أمّا حدّها فإنّها أصواتٌ يعبّر بها كلّ قومٍ عن أغراضهم".[54]

الهوامش:

(1) - عبد الرّحمن الحاج صالح، النّظرية الخليلية الحديثة، مجلّة اللّغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد 10، رجب 1471هـ - ديسمبر 1996، ص ص 92، 93.

(2) - عمّار ساسي، النصّ الأدبي ومبدأ ربط النّحو بالبلاغة، مجلّة اللّغة والأدب، العدد 8، ص 220.

(3) - عبد القادر الفاسي الفهري، المعجمة والتّوسيط، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1997، ص 9.

(4)- المرجع نفسه، ص 17.

(5)- أحمد محمّد المعتوق، نظرية اللّغة الثّالثة، المركز الثّقافي العربي، ط 1، 2005، ص 53.

(6)- محمّد حسن حسن جبل، المعنى اللّغوي، مكتبة الآداب، ط 1، 2005، ص 12.

(7) - أحمد محمّد المعتوق، نظرية اللّغة الثّالثة، ص 57.

(8)- محمود عكّاشة، التّحليل اللّغوي في ضوء علم الدّلالة، دار النّشر للجامعات، ط 1، 2005، ص 12.

(9)- ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللّغة، تر/ كمال بشر، دار غريب، القاهرة، ط 12، ص 68.

(10)- محمود عكّاشة، التّحليل اللّغوي في ضوء علم الدّلالة، ص 158.

(11)- صلاح الدّين صالح حسنين، الدّلالة والنّحو، مكتبة الآداب، ط 1، ص 187. ويقول الباحث " محمّد النّويري " موضّحاً مفهوم التصور العشائري للمفردة: " لعلّنا لاحظنا أنّ التّشبيه الذي لا يحوج إلى التّأويل هو ذاك الذي يستند إلى عادات المجموعة اللّسانية في تصوّر الوجود وإدراك طبيعة الأشياء. ذلك أنّ اللّغة في جانبٍ مهمٍّ منها لا تمثّل تعبيراً عن ثقافة المجتمع فحسب وإنّما تمثّل خلاصةً للأنحاء الفكرية التي تسلكها الجماعة في إدراك معطيات الكون وضبط قيمها من

حيث كانت... ومن ثَمَّ فإنّ إدراك خواصّ الأشياء في ثقافة من الثّقافات إنّما هو نتيجة لتوسّل ما ومعاشرة معيّنةٍ ومعاناةٍ مخصوصةٍ وفق ما تقضي به عوامل عديدة، طبيعية واجتماعية وأخلاقية ودينية... " علم الكلام والنّظرية البلاغية عند العرب، دار محمد علي الحامي، صفاقس، ط 1، 2001، ص ص 370، 371.

(12)- محمّد عبد المطلب، جدلية الإفراد والتّركيب في النّقد العربي القديم، الشّركة المصرية العالمية للنّشر، لو نجمان، ط 2، 2004، ص ص 87، 88. ويعتقد الباحث "عبد السّلام المسدّي " وفق التصوّر الوجودي: " أنّ أوّل ما يطالعنا من مستخلصات تفكير الحضارة العربية في هذا المضمار باعتبار أنّ اللّغة في يد الإنسان مفتاح يلج به باب العالم الخارجي. بل هي المفتاح الوحيد الذي يتوصّل به الإنسان إلى اقتحام الكون من حوله. وهي بذلك المَعْبَر الفريد الذي يتحاور بفضله الإنسان مع الوجود ليتفاعل معه ". عبد السّلام المسدّي، التّفكير اللّساني في الحضارة العربية، الدّار العربية للكتاب، ليبيا تونس، 1981، ص 53.

(13)- عبد السّلام المسدّي، التّفكير اللّساني في الحضارة العربية، ص 141.

(14)- ماريوباي، أسس علم اللّغة، تر/ أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط 8، 1998، ص 212.

(15)- هدسون، علم اللّغة الاجتماعي، تر/ محمود عياد، عالم الكتب، القاهرة، ط 3، 2002، ص ص 80، 81.

(16)- محمود جاب الربّ، علم اللّغة نشأته وتطوّره، دار المعارف، القاهرة، ط 1، 1985، ص 148.

(17)- مسعود صحراوي، التّداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التّراث اللّساني العربي، دار الطّليعة، بيروت، ط 1، 2005، ص 18.

(18)- بالمر، علم الدّلالة إطار جديد، تر/ صبري إبراهيم السيد، 1995، ص 74.

(19)- المرجع نفسه، ص 24.

(20) - المرجع نفسه، ص 75.

(21) - محمّد محمّد يونس علي، مدخل إلى اللّسانيات، دار الكتاب الجديد، ط 1، 2004، ص ص 78، 79. أولمان، دور الكلمة في اللّغة، ص 29، 30.

(22) - صلاح إسماعيل، نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس، الدّار المصرية السّعودية، 2005، ص 77. عبد الهادي بن ظافر الشّهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، ط 1، 2004، ص 21.

(23) - صلاح إسماعيل عبد الحقّ، التّحليل اللّغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير، ط 1، 1993، ص ص 279، 280. وقد أولى بول جرايس **P. Grice** عنايةً كبيرةً بالمعنى، و "ينطلق من ميزةٍ في اللّغة الإنجليزية حيث الفعل الإنجليزي **to mean**، يترجم في الآن نفسه ب "أشار" **indiquer** و"دلّ" **signifier** و"قصد" **vouloir dire**. ويقارن أمثلةً من قبيل "يشير منبّه الحافلة إلى الانطلاق" و "تدلّ البثور المنتشرة على جلد زيد على أنّه يعاني من مرض جدري الماء "بأمثلةٍ من قبيل: "أن يقول زيد لعمرو: (إنّ غرفتك زريبة خنازير)، فإنّه يقصد أنّ غرفة عمرو وسخة وغير مرتّبة". وتوافق الأمثلة الأولى **الدّلالة الطّبيعية** فهي ظواهر وُضعت في علاقةٍ مع أعراضها أو نتائجها. وتوافق الأمثلة الثّانية **دلالة غير طبيعيةٍ**، فهي صلة قائمة بين محتويات يريد القائلون إبلاغها والجمل التي استعملوها لإبلاغها. وبعبارةٍ أخرى، فإنّ منبّه الحافلة وبثور زيد ليست مرتبطةً بانطلاق الحافلة أو مرض جدري الماء من خلال تأويلنا لهما، بل لهما وجود مستقلّ. وفي المقابل تستعمل الجمل للإبلاغ ويظلّ تأويلها رهين هذا الأمر الأساسي... وهكذا يشدّد غرايس **Grice** في التّواصل اللّغوي على نوايا القائل وعلى فهم المخاطَب لهذه النّوايا. ولكن، وخلافاً لسيرل **Searle**، لا يؤسّس هذا الفهم حصراً على الدّلالة التّواضعية للجمل وعلى الكلمات التي تتكوّن منها هذه الجمل ". آن روبل، جاك موشلار، التّداولية اليوم، علم جديد في التّواصل، تر/ سيف الدّين دغفوس، محمّد الشّيساني، دار الطّليعة، بيروت، ط 1، 2003، ص 53.

(24)- المرجع نفسه، ص 56.

(25)- طه عبد الرّحمن، تجديد المنهج في تقويم التّراث، المركز الثّقافي العربي، ص244. وقد ذكر أسباب التّواصل، ص ص 245، 246.

(26)- المرجع نفسه، ص 247.

(27)- سمير شريف إستيتية، ثلاثية اللّسانيات التّواصلية، العدد 3، مج 34، يناير مارس، 2006، ص 8.

(28)- محمّد محمّد يونس علي، مقدّمة في علمي الدّلالة والتّخاطب، ص 98.

(29)- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص ص 26، 27.

(30)- عبد السّلام المسدّي، العربية والإعراب، مركز النّشر الجامعي، تونس، 2003، ص 247.

(31)- محمّد العبد، النصّ والخطاب والاتّصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط 1، 2005، ص 48. ذكر الباحث مفهوم الكفاية الاتّصالية عند مؤسّسيها من بينهم دال هايمز **dell hymes** فوندرليش **wunderlich**، ص ص 48، 54. وتستند الكفاية الاتّصالية عند هايمز على ثلاثة مفاهيم جزئية: 1- مفهوم المخزون اللّغوي عند المتكلّم... 2- مفهوم العادات اللّغوية أوالروتين اللّغوي... 3- المحيط الاجتماعي للسّلوك اللّغوي... وهناك ثلاثة أبعادٍ للكفاية الاتّصالية 1- الكفاية الصّغرى **Minimal competence**: يعرف المتكلّمون بعادةٍ كلاميةٍ ما في محيطٍ اجتماعيٍ ما، من غير تغييرٍ في المخزون أو الشّفرة 2- الكفاية المتوسّطة **Average competence**: يتحكّم المتكلّمون في مجموعة من العادات الكلامية ليست واسعةً ولا قليلةً. وهم يعتادون هذه العادات في مجالٍ محدّدٍ من مجالات المحيطات الاجتماعية المختلفة... 3- الكفاية الكبرى **Maximal competence**: يغيّر المتكلّمون عاداتهم اللّغوية في محيطاتٍ اجتماعيةٍ عدّةٍ، ويغيّرون مخزونهم اللّغوي في سعةٍ ويسرٍ. انظر ص ص 56، 57.

(32)- محمّد يحياتن، مفهوم الأصالة من وجهة نظر تحليل الخطاب، مجلّة اللّغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد 14، 1999، ص 337.

(33)- شاهر الحسن، علم الدّلالة، السيمانتيكية والبراجماتية في اللّغة العربية، دار الفكر، ط 1، 2001، ص 162. يقول الباحث " مصطفى غلفان " في ذلك: " فالحجاج الذي هو فعالية تداولية جدلية... يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجّهات ظرفية، ويهدف إلى الاشتراك في إنشاء معرفة علمية إنشاءً موجّهاً بقدر الحاجة. وهو جدلي من حيث أنّ هدفه إقناعي قائم على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيّقة... ". مصطفى غلفان، اللّسانيات العربية الحديثة، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 4، جامعة الحسن الثاني، عين الشقّ، ص 251.

(34)- مفتاح بن عروس، علاقة النصّ بالمقام، مجلّة اللّغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد 14، 1999، ص ص 294، 295.

(35)- منذر عياشي، اللّسانيات والدّلالة، مركز الإنماء الحضاري، ط 1، 1991، ص 104.

(36)- صلاح إسماعيل عبد الحقّ، التّحليل اللّغوي عند مدرسة أكسفورد، ص 183، 206. بتصرّف.

وانظر أيضاً في مفهوم الفعل الكلامي عند نظرية الملاءمة سبربر **Sperber** وولسن **Wilson**، التّداولية اليوم، ص ص 184، 186. ص ص 190، 191.

(37)- براون، يول، تحليل الخطاب، تر/ محمد لطفي الزليطني، منير التريكي، جامعة الملك سعود، 1997، ص ص 33، 36.

(38)- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ص 56.

(39) - المرجع نفسه، ص ص 257، 258.

* – قصيدة الياقوتة قصيدة صوفية نظمها الشاعر الذي ينسب إلى منطقة بتيارت، اسمه عبد القادر بن أبي سماحة ويلقب بسيدي الشيخ وتقـــع في واحد وسبعين ومائة بيت.

(40)- ينظر في مفهوم هذه المصطلحات، عبد المنعم الحفني، معجم مصطلحات الصوفية، دار المسيرة، بيروت، ط 2، 1986، صفحات 62، 197، 218، 268.

(41)- المرجع نفسه، ص 32.

(42)- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص ص 322، 324.

(43)- المرجع نفسه، ص 369.

(44)- ينظر في مفهوم الإشارة عند الصوفية، عبد المنعم حنفي، معجم مصطلحات الصوفية، ص ص 16، 17.

(45)- ينظر في هذا المفهوم، بالمر، علم الدلالة إطار جديد، ص 150. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 331.

(46)- محمد جلال شرف، دراسات في التصوف الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، 1984، ص 206.

(47)- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 444.

(48)- المرجع نفسه، ص 482.

(49)- عبد المنعم حنفي، معجم مصطلحات الصوفية، ص 217.

(50)- محمد العدلوني الإدريسي، معجم مصطلحات التصوف الفلسفي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط 1، 2002، ص ص 175، 176.

(51)- يقول مثلا في الاستفهام راسما حدود حجته:

وأي طبيب للقلوب من العمى * أطب من الذكر القوي الإشارة. ب58.

(52)- سورة القصص، الآية 77.

(53)- سورة إبراهيم، الآية 4.

(54)- ابن جني، الخصائص، ج 1، ص 44.

* الخلل العروضي الوارد في بعض أبيات المنظومة يعود إلى النسخة الأصلية للناظم.